



جاءت قبائل من العرب تسمى (عَضَلٌ وَالْقَارَةُ) إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تقول: إن فيها إسلاماً، وترغب أن يرسل لها بعض المعلمين، فأرسل سبعة من خيرة أصحابه، فغدروا بهم على ماء يسمى ماء الرجيع، وقتلوا بعضهم، وأسرروا بعضهم، وكان من أسر: "خُبَيْبُ بْنُ عَدِيِّ الْأَنْصَارِيُّ". أخذوه وباعوه لأهل مكة، وعزم أهل مكة على قتله، وكان محبوساً في بيت إحدى الأسر، فطلب مرة سكيناً ليزيل بها شعره فأعطوه، ثم تسلل إليه أحد الأطفال فأخذته وأجلسه على حجره..

رأى صاحبة المنزل هذا فزعه وخافت أن يقتله ثاراً لنفسه، وأدرك ما يدور في خلدها، فابتسم وقال:

أتخافين أن أقتله؟

ما كنت لأفعل إن شاء الله!

و حضنه و قتله وأرسله لأمه!

هذه أخلاق رجال محمد - صلى الله عليه وسلم - في حفظ الذم، وعدم إيذاء الآبراء، والتسامي عن الأحقاد والضغائن..

قدّمه لِيقتلوه، فطلب أن يمْلأه ليصلِّي ركعتين، فصلَّى صلاة خفيفة، وقال:

لولا أن تظنو أن أطلت الصلاة خوفاً من الموت لأطلتها!

وَسَأْلُوهُ: أَتَحِبُّ أَنْ يَمْكُنَ مَكَانُكَ؟

فقال: والله ما أحب أني في أهلي وأن محمداً تصيبه شوكة في رجله!

هذا انتصار الإيمان حين تختلط شاشته القلوب.

إنها اللحظة التي يعيا فيها الشاعر، ويؤمن فيها الكافر، ويصدق فيها الكاذب.

ويبدو أنه أحب أن يبعث رسالة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين معه وإلى أهله وأسرته، وعلم أن أفضل وسيلة لذلك هي الشعر حيث يحفظه العرب ويتناقلونه، فأنشأ يقول:

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَالْبُوا
قَبَائِلُهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مُجَمَّعٍ

وَكُلُّهُمْ مُبْدِي الْعَدَاوَةِ جَاهِدٌ
عَلَيَّ لَذِي فِي وَثَاقٍ مُضَيَّعٍ

وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ
وَقَرِيبُتِ مِنْ جِدْعٍ طَوِيلٍ مُمْنَعٍ

إِلَى اللَّهِ أَشْكُوْ كُرْبَتِي بَعْدَ غُرْبَتِي
وَمَا جَمَعَ الْأَحْزَابُ لِي حَوْلَ مَصْرَعِي

فَهَا الْعَرْشِ صَبَرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي
فَقَدْ بَضَعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَئْسَ مَطْمَعِي

وَقَدْ خَيَرُونِي الْكُفَرَ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
وَقَدْ نَرَقْتُ عَيْنَايِ منْ غَيْرِ مَجْزَعٍ

وَمَا بِي حَذَارُ الْمَوْتِ أَنِي مَيِّتٌ
وَلَكِنْ حَذَارِي جَهْنُ نَارٍ مُلْفَعٍ

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ
بُيَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شَلُوْ مُمْزَعٍ

فَلَسْتُ أَبْلِي حِينَ أُفْتَلُ مُسْلِماً
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وَلَسْتُ بِمُبْدِ لِلْعَدُوِ تَخَشُّعاً
وَلَا جَزَعاً إِنِي إِلَى اللَّهِ مَرْجِعي

معان نبيلة في الصبر، والثبات، والتسليم، والثناء على الله، والشكرا على اختياره للشهادة، والاستهانة بالموت..

يحتاجها أولئك الذين ابتلوا بعدها قاهر لا يرحم في فلسطين وفيماجاورها من بلاد عربية منكوبة؛ يحكمها متسطلون ظالمون، مستخفون بالدماء، مستهينون بالكرامة الإنسانية، معتدون على الصغار والكبار والرجال والنساء، باحثون عن أسباب للتنكيل بأبرياء، وجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه التعبير عن رأي أو التفوّه بنقدٍ مهما كان صغيراً وتافهاً..

لا شيء يعدل العافية، وقد قال - صلى الله عليه وسلم - للعباس: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِ اللَّهُ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (أحمد والترمذى عن العباس)، **وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الْعَافِيَةِ.**

ولكن الحر إذا ابتلي صبر وأظهر التجدد، واستعن بالله، فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً، كما قال إقبال:

خُدُوا إِيمَانَ إِبْرَاهِيمَ تَبَّتْ * لَكُمْ فِي النَّارِ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**

لقد كان "خبيب" في أمن وسكونه ورضا، لم يقلق، ولم يتذمر أو يضجر؛ لأنَّه موصول الحبل بالله، منظر لقاءه، فرح بجنته..

ولقد ذكرنا المرابطون على ثغور الأمة بهذا المعنى، وأحيوا في عصرنا روح البسالة، والصبر، والانضباط، والتزام القيم والمبادئ الربانية؛ التي تحكم المسلم حتى في ميدان المعركة؛ فلا تطيش سهامه، ولا تضيع بوصلتة، ولا يفقد الأخلاق الرسالية؛ التي هي أهم ما لديه، وهي المعيَّر عن معتقده وإيمانه.

قصة "خبيب" تشبه قصة أصحاب الأخدود؛ الذين أحرقوا بالنار، وصبروا على إيمانهم، فكان فعلهم انتصاراً للمبادئ التي أصرّوا عليها وضحوا من أجلها.. حتى أطفالهم ونساؤهم أحرقوا ولم يتزحزحوا عن عقيدتهم.

وانتصر الله لهم بعقاب السلطة التي قتلتهم وزوالها شر زوال.

وانتصر لهم بأن جعل الملائكة تستقبلهم بالروح والريحان، وتتنزل عليهم في اللحظة الصعبة: {أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} (30:فصلت).

وانتصر لهم بأن خلد ذكرهم في القرآن في سورة تليل إلى يوم الدين، وجعلهم أسوة ونموذجاً يحتذى لكل مبتلى في العالمين. إنها صورة من صور النصر الحقيقي؛ الذي يعز فهمه على النفوس الكثيفة الغليظة المثلثة بالمبادئ، والتي لا تضع في حسابها إلا لحظتها الراهنة وكأنها الدهر كله، ولا تضع في حسابها إلا رقعتها الجغرافية وكأنها الكون كله، ولا تضع في حسابها إلا النمط المادي المشهود وكأنه الحياة كلها..

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيهِ} (247:البقرة).

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (51:غافر).

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (171-173:الصفات).